نشرة شهرية الكترونية
العدد رقم 21
آب 2026

Heritage تراث

جمعية تراث بيروت
BEIRUT HERITAGE SOCIETY

بين حق الملكية وحق الذاكرة... من يحمي تراث المدن؟

علي غلاييني - عضو جمعية تراث بيروت

ليست المدينة حجارةً صامتة، ولا زقاق مرصوفة بالبلاط فحسب؛ إنها ذاكرة أمة، وسجلها المفتوح، والمرآة التي تعكس ثقافتها وتاريخها وهويتها. وكل بيت تراثي، وكل شرفة عتيقة، وكل نافذة خشبية مطلة على الأزقة القديمة، ليست مجرد عقار قابل للبيع والشراء، بل صفحة من كتاب المدينة الذي كتبه الأجداد وورثه الأحفاد.

غير أن حماية هذا الإرث لا يمكن أن تقوم على ظلم أصحاب الأملاك، كما لا يجوز أن تتحول قدسية الملكية الخاصة إلى ذريعة لمحو ذاكرة المدن. فبين الحقين مساحة واسعة من العدالة، وهي المساحة التي ينبغي أن تشغلها الدولة، ممثلة بوزاراتها وبلدياتها ومؤسساتها التشريعية.

فالملكية الخاصة حق دستوري وإنساني لا جدال فيه. ومن اشترى منزلاً أو ورثه يملك، من حيث المبدأ، حق التصرف به واستثماره والاستفادة منه. وليس من العدل أن يُطلب من المالك أن يتحمل وحده كلفة الحفاظ على مبنى تراثي، بينما يُمنع من ترميمه أو تطويره أو استثماره، فتتحول ملكيته إلى عبء اقتصادي قد يمتد لعقود.

وفي المقابل، فإن المجتمع بأسره يملك حقاً معنوياً في الحفاظ على تراثه. فالبيوت التاريخية ليست ملكاً لجيل واحد، بل هي إرث متراكم للأجيال المقبلة. وإذا اختفى هذا التراث تحت ضغط المضاربات العقارية أو غياب التشريعات، فلن يكون بالإمكان استعادته مهما بلغت الإمكانات المالية، لأن التاريخ إذا هُدم لا يُعاد بناؤه.

من هنا، فإن المشكلة ليست في المالك، وليست في دعاة الحفاظ على التراث، وإنما في غياب منظومة قانونية عادلة وواضحة. فالدول التي نجحت في حماية مدنها التاريخية لم تكتفِ بإصدار قرارات منع الهدم، بل أنشأت صناديق تمويل، وقدمت إعفاءات ضريبية، ومنحت قروضاً ميسرة للترميم، وسمحت باستثمارات مدروسة تحفظ المبنى وتؤمن في الوقت نفسه عائداً اقتصادياً لمالكه.

أما أن يُصنَّف منزل بأنه تراثي، ثم يُترك صاحبه يواجه وحده تكاليف الصيانة والضرائب والانهيار التدريجي، فذلك ليس حفاظاً على التراث، بل نقلٌ لمسؤولية الدولة إلى المواطن. فالتراث منفعة عامة، وما كان منفعة عامة يجب أن تتحمل الدولة جزءاً أساسياً من كلفة حمايته.

إن وزارات الثقافة والأشغال والمالية والداخلية، إلى جانب البلديات، مطالبة اليوم بوضع سياسة وطنية متكاملة للحفاظ على التراث العمراني، تقوم على أسس واضحة لا على قرارات ارتجالية أو استنسابية. سياسة تحدد بدقة ما هو المبنى التراثي، ومعايير تصنيفه، وحقوق مالكه، وواجبات الدولة تجاهه، وآليات التعويض والدعم والاستثمار.

كما أن البلديات مطالبة بالانتقال من دور المراقب إلى دور الشريك، عبر إعداد خرائط تراثية، وخطط تنظيمية، وتشجيع إعادة إحياء الأحياء القديمة، وتحويلها إلى مراكز ثقافية وسياحية واقتصادية تعود بالنفع على سكانها قبل زوارها.

يتبع ص2

إن الحفاظ على التراث ليس عملاً رومانسياً يقتصر على التقاط الصور ونشر الحنين إلى الماضي، بل هو مشروع تنموي واقتصادي وثقافي. فالمدن التي حافظت على هويتها التاريخية أصبحت أكثر جذباً للاستثمار والسياحة والثقافة، بينما فقدت مدن أخرى شخصيتها عندما استبدلت بيوتها التاريخية بغابات من الإسمنت لا تحمل أي ملامح خاصة.

والعدالة هنا تقتضي أن يكون الجميع شركاء في حماية الذاكرة: المالك، والدولة، والبلدية، والمجتمع المدني، والقطاع الخاص. فلا يُظلم المالك باسم التراث، ولا يُذبح التراث باسم الملكية الخاصة.

إن الأجيال المقبلة لن تحاسبنا على عدد الأبراج التي شيدناها، بل على ما أبقيناه لها من هوية. وستسألنا: ماذا فعلتم بمدنكم؟ هل حافظتم على روحها أم بعتم ذاكرتها؟

فالتراث ليس رفاهية ثقافية، بل استثمار في المستقبل، والمدينة التي تفقد ذاكرتها تفقد جزءاً من روحها. أما الدولة العادلة، فهي التي تنصف المالك، وتحمي التراث، وتشرّع القوانين التي تجعل هذين الحقين متكاملين لا متعارضين، لأن الأوطان القوية لا تُبنى على إلغاء حق لصالح آخر، بل على ميزان من العدالة يحفظ الإنسان، ويحفظ معه المكان، ويورث الاثنين معاً للأجيال القادمة.

الحاج ابو شفيق

مروان جارودي

كان جدّي شفيق الجارودي أبو أحمد من سكان البسطة الأصيلين، وكان يملك منزلًا كبيرًا؛ تحيط به حديقة مشجرة بأشجار متنوّعة بما فيها البلح، وتمتد من شارع طلعة النجادة وصولا الى شارع سيدي حسن، ولا يزال العقار موجودًا مع منزله القرميد حتى الان.

وعندما تُوفي أخوه جمع كلّ أولاده وضمّهم إليه؛ وعاملهم كما يعامل اولاده.

وفي عيد الفطر أخذهم جميعًا إلى محل "اوروزدي بيك" في وسط البلد، اخر شارع المصارف، وكان الأشهر والأغلى وقتذاك، واشترى ثياب العيد الجديدة لهم بدون ايّ تفرقة.

والصورة توضح الفكرة ...

وعندما حلّ عيد الأضحى وقبل عدة ايام استدعى زوجته قائلًا:

"ياحجة إم أحمد لبسي الولاد بدي نزلهم نشتري ثياب العيد".

وكالعادة كانت الزوجة اكثر تدبيرًا وخوفًا على مال زوجها فقالت له:

"يا حاج بعيد الفطر اشتريت لهم ثياب وبعدهم جداد، بهالعيد جيب بس لولادنا خلينا نوفرلنا قرشين".

فنظر لها وقال: "والله معك حق يا حجة لازم نوفر شوي، يلا اعطيني اولاد خيي الايتام بس لوحدهم لاشتري لهم وفرحهم".

وهكذا كان وترك أولاده ولم يشتر لهم ثيابًا جديدة، ليعطيها درسًا في المحبة، والعطف، والرحمة، وحفظ صلة الرحم، خصوصًا مع الأيتام المحرومين من عاطفة الأبوين.

هكذا كانت بيئة البيارتة ولا تزال إن شاء الله بالرغم من قسوة الظروف.

صورة من ألبوم عائلة الفنان عازف الكمان محمود قعبور "رحمه الله"

الفنانة نجاح سلام عقب حفلتها الأولى في أستوديو إذاعة لبنان أواخر الأربعينيات، وإلى يسارها الموسيقار محمد عبد الوهاب، فالشاعر الكبير بشارة الخوري، وحولهم مجموعة من موسيقيي وكورال الإذاعة اللبنانيّة؛ ومن بينهم عازف الكمان محمود قعبور المعروف بالرشيدي (يقف خلف الفنانة نجاح سلام).

الجدير بالذكر أنّ والد نجاح سلام الملحن محيي الدين سلام كان متحفظاً في البداية على دخول ابنته الوسط الفنّي، لكنّ إشادة عبد الوهاب الكبيرة بتميّز صوت وقوة موهبة ابنته؛ جعلته يلين ويوافق على مسيرتها الفنيّة الراقية.

سهرة في رأس النبع... حين حاورت عائلة كسّاب الفنان ماجد أفيوني

تُعيدنا صفحات قديمة من مجلة "ألوان"، نُشرت في أوائل ثمانينيات القرن الماضي، إلى لقاء بيروتي عائلي وفني أُقيم في منزل السيد جورج كسّاب في منطقة رأس النبع، وهو جدّ الدكتورة ماريا أ. الحلو، عضو جمعية تراث بيروت.

حمل المقال عنوان "عائلة كسّاب تحاور ماجد أفيوني"، ووثّق سهرة استضاف خلالها أهل المنزل الفنان اللبناني ماجد أفيوني، وجلسوا معه في حوار عفوي، قبل أن تنتقل الجلسة إلى الغناء والعزف والرقص. وقد امتدّت السهرة حتى الثالثة صباحًا، بمشاركة أفراد العائلة وضيوفهم.

لم يُجرَ الحوار في استوديو تلفزيوني أو على خشبة مسرح. استضافه البيت البيروتي كما اعتاد أن يستضيف الناس؛ كان صالونه مفتوحاً للفنان، وللقريب والصديق والجار، ولكلّ من لبّى الدعوة، فتتحوّل الزيارة فيه إلى لقاء عائلي دافئ يجمع الحديث والمزاح والغناء.

مَن لبّى الدعوة؟

ضمّت الجلسة صاحب المنزل جورج كسّاب وزوجته ياسمين كسّاب، وأولادهما وأحفادهما. ولبّى الدعوة أيضاً الفنان والملحّن اللبناني سعيد الناشف، الذي شارك ماجد أفيوني أجواء السهرة الفنية، إلى جانب أصدقاء عائلة كسّاب: جاره فؤاد ميقاتي وزوجته منى بستاني، وإلياس شقير وزوجته لوسي، والسيدة هيام غادر.

"كنت أودّ أن أدعو ابني لبنان"

وسط الأسئلة التي طرحها أفراد العائلة والحاضرون، تحدّث ماجد أفيوني عن محبته الكبيرة للبنان، فقال:

"لكثرة حبّي للبنان، كنت أودّ لو أتزوّج وأصبح أباً لابن أدعوه لبنان".

ثم رفع كأسه، وطلب إلى الحاضرين أن يشربوا "نخب لبنان الواحد".

تكشف هذه الكلمات الكثير عن معنى لبنان في وجدان اللبنانيين وأهل بيروت. لم يكن الوطن بالنسبة إليهم فكرة بعيدة أو اسماً يُذكر في الخطب وحدها؛ كان قريبًا إلى درجة أن يتمنّى الفنان أن يمنح اسمه لابنه، فيدخل لبنان إلى البيت ويُنادَى بين أفراد العائلة.

وكانت عبارة "لبنان الواحد" تحمل دلالة مؤثّرة في أوائل الثمانينيات. ففي الوقت الذي كانت فيه البلاد تتألّم، ظلّ كثيرون داخل بيوتهم يرفعون نخب وحدتها، ويتحدّثون عنها بمحبة، ويحفظون في جلساتهم صورة لبنان الذي أرادوه وطنًا يجمع أبناءه.

ومن خلال ما قاله ماجد أفيوني، يظهر لبنان كما عرفه أهله وعاشوه في تفاصيل حياتهم: في العائلة والحيّ والجار والصديق، وفي الأغنية التي يحفظها الجميع، وفي الذكريات المرتبطة بالمنزل والشارع والوجوه التي تتكرّر في السهرات والمناسبات.

حين كان الصالون البيروتي يجمع الناس

كانت هذه اللقاءات جزءاً أصيلاً من الحياة الاجتماعية في بيروت.

وكانت أبواب كثير من البيوت البيروتية مفتوحة لمن يقصدها. فالجار يدخل من دون تكلّف، والصديق يُعامَل كفرد من الأسرة، ومن يحضر للمرة الأولى قد يغادر وقد صار من أهل البيت. ومن خلال هذه الروابط تشكّلت الحياة الاجتماعية للأحياء، وحفظت البيوت جانبًا أساسياً من روح بيروت.

ذاكرة بيت وذاكرة مدينة

لا تحفظ صفحات مجلة "ألوان" لقاءً مع فنان فحسب، بل تحفظ صورة من أسلوب حياة عرفته بيروت.

وبقيت تلك السهرة، التي جمعت في رأس النبع عائلةً وجيرانَ وأصدقاءَ حول ماجد أفيوني وسعيد الناشف، محفوظةً في الصور والصفحات القديمة، شاهدةً على زمن كان يُقال فيه، في البيت البيروتي، ببساطة وصدق:

نخب لبنان الواحد.

جمعية تراث بيروت، تعنى بنشر الوعيّ لأهميّة المحافظة على تراث بيروت الثقافي والفني والمعرفي والشعبي، والعمل على توثيق تاريخها، ونمط عيش أهلها وتقاليدهم.

www.beirutheritage.org
facebook/BeirutHeritage
instagram/beirutheritage